الكوارث الطبيعية التي حلّت ببغداد خلال الحقبة (334-550هـ/ 955-1155م) وآثارها الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية

محمد عبد الله القدحات*

ملخص

تناولت الدراسة الكوارث الطبيعية التي حلّت ببغداد خلال الحقبة (344-550هـ/955-1155م) وآثارها الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية. فقد تعرضت بغداد لعدد كبير من الكوارث زاد عددها عن أربع وثلاثين كارثة. كانت الأوبئة وما تحمله من أمراض تحصد أرواحا عجزت المدينة وأهلها عن مواجهتها كما حدث (423هـ /1031م)، وكذلك وباء عام (469هـ/ 1076م) والذي كان من الشدة لا سيما في أطراف بغداد " حتى لم تجد الغلال من يجمعها. كما اجتاح المدينة في عام (478هـ/1085م) وباء الطاعون الذي خلّف أكثر من عشرين ألفا من الموتى. أضافةً إلى ذلك فقد تعرضت لعدد كبير من الكوارث الأخرى مثل: الزلال، وانحباس الأمطار، وموجات الجراد، أسهمت سلبًا في حياة الناس وسبل معاشهم.

وكانت الفيضانات عاملا أساسيا في تغير معالم بغداد، بل كانت من أشد معاول الهدم لبنيتها التحتية، فقد شهدت المدينة عدة فيضانات كان أشدها عامي: (461هـ /1068م)، (466هـ /1073م) فقدت المدينة بفعلها أكثر عمارتها، فتقلصت مساحتها، وانحصر معظم عمرانها في الجانب الشرقي، فضلا عن التغير "الديمغرافي" لبعض أجزائها، والمتمثل بهجرة سكان المناطق المتضررة، وبالتالي خراب واندثار الكثير من المناطق السكنية.

الكلمات المفتاحية: بغداد، كوارث، زلال، فيضان، حرائق

* قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية الآداب واعلوم وتقنية المعلومات والاتصال، جامعة كلباء، الإمارات العربية المتحدة.

تاريخ تقديم البحث: 2023/1/12م. تاريخ قبول البحث: 2023/10/9م .

© جميع حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة، الكرك، المملكة الأردنية الهاشمية، 2024 م.

The Natural Disasters that Struck Baghdad during the Era (334-550 AH / 955-1155 AD) and their Economic, Social, and Urban Impacts

Mohammad alqadahat*
qadahat@hotmail.com

Abstract

The study deals with the natural disasters that befell Baghdad during the era (344-550 AH / 955-1155 AD) and their economic, social and urban effects. Baghdad witnessed a large number of natural disasters, which exceeded thirty-four. Epidemics and the diseases they carried took lives, and the city and its people were unable to face them, as happened in 423 AH / 1031 AD, as well as in 469 AH / 1076 AD, which were severe, especially in the outskirts of Baghdad, to the extent that the crops did not find anyone to collect them. In the year 478 AH/1085 AD, the city was swept by a plague epidemic that left more than twenty thousand dead0. In addition, it was exposed to a large number of other disasters, such as earthquakes, lack of rain, and locust waves, which negatively affected to people's lives and livelihoods.

The floods were a major factor in changing the features of Baghdad. Rather, they were among the most severe tools for demolishing its infrastructure. The city was subjected to several floods, the most severe of which were inyears 461 AH / 1068 AD and 466 AH / 1073 AD. As a result, the city lost most of its architecture, so its area shrank, and most of its urbanization was confined to the eastern side, in addition to the "demographic" change of some of its parts, represented by the immigration of the population of the afflicted areas, and, consequently, the ruin and diasapperance of many residential areas

Keywords: Baghdad, Disasters, Earthquake, Flood, Fires

* Department of History and Islamic Civilization, College of Arts, Information and Communication Sciences and Technology, University of Kalba, UAE..
Received: 12/1/2023. Accepted: 9/10/2023.
© All rights reserved to Mutah University, Karak, The Hashemite Kingdom of Jordan, 2024.

مقدمة:

يعد موضوع الكوارث الطبيعية وانعكاساتها في ذهنية وسلوك إنسان العصور الإسلامية من المجالات "المعتمة" التي لم يسبر غورها بشكل عميق في الدراسات التاريخية العربية، خاصة أن الموضوع يمثل حوارا جديا بين تاريخ الطبيعة وتاريخ الإنسان، حوارا يروم اختبار صحة مقولة "التحدي والاستجابة" بتعبير ارنولد تونبي، ويكشف عن سقف التفاعل بين المتغيرات المناخية والإفرازات السلوكية والذهنية للإنسان، كما أنه يعد وبكل المقاييس موضوعا إشكاليا مفعما بالمطبات التي تمتاز فيها ندرة المتون النّصية بالتعقيدات المنهجية التي تفرضها طبيعة موضوع بهذه الشاكلة (Al-Bayadh, 2008, p. 8).

لذلك، فقد استدعت الكوارث الطبيعية والأوبئة والطواعين الفتاكة، بما خلَّفته من خراب ودمار ووفيات اهتمام العلماء؛ فكان نتيجة ذلك تأليف الكتب التي رصدتها أو عرضت أسبابها ونتائجها. ومما يؤسف له أن معظم التراث الذي صنف في هذا المجال مفقود. فمما صنف في الزلال: "رسالة علم حدوث الرياح في باطن الأرض المحدثة" لأبي يوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي (ت 260هـ\873م) (Ibn Al-Nadim, (D.T), p. 365). وصنّف أبو الحسن سِراج الدين علي بن أبي بكر بن حِمير اليمني الهمداني (ت 557هـ/ 1161م) " الزلازل والأشراط Al-Hijrani, 2008 AD, Vol. 4, p. 198; Kahala, Vol. 7, p. 44). وصنّف السيوطي (ت911هـ\1505م) "كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة" (Al-Katani, 1982, vol. 2, p. 1016).

ومن المؤلفات التي ذكرها ابن النديم حول الكوارث المُناخية "رسالة في علة الرعد والبرق والصواعق" لأبي يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي (ت260هـ\873م)، و"كتاب الأمطار والرياح وتغير الأهوية" لأبي معشر جعفر بن محمد البلخي (ت 272هـ\885م)، و "كتاب في سبب قتل ريح السموم" لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي (ت311هـ\923م) ,Ibn Al-Nadim, (D.T), p. 365) .p. 387, p 416)

وكانت الطواعين والأوبئة وطرق علاجها من المجالات التي صنف فيها العلماء المسلمون، ذكر ابن النديم منها: "كتاب الطواعين" لعبيد الله بن محمد بن عبيد لابن أبي الدنيا (ت281هـ\894م)، و "رسالة في الجدري والحصبة" لثابت بن قرة (ت288هـ\900م)، و"كتاب الجدري والحصبة" لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي (ت311هـ\923م)، و "كتاب الجدري والحصبة"

لأبي جعفر أحمد بن محمد الطبيب (ت360هـ\970م) Ibn Al-Nadim, (D.T), p. 262, p. (380, p. 418).

- إشكالية الدراسة، والمنهج، والأهداف

تتمل إشكالية الدراسة بالتساؤلين الآتيين:

أ. كيف أثرت الكوارث الطبيعية – خلال حقبة الدراسة– في مدينة بغداد؟

ب. ما هي أهم التحولات الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية التي شهدتها بغداد بفعل توالي تلك الكوارث؟

ولأجل الإجابة على التساؤلين،اعتمدت الدراسة منهجًا علميًا قائمًا على استقراء وتحليل مختلف النصوص التاريخية المستقاة من مصادر معاصرة أو قريبة عهد بالكوارث موضوع الدراسة، شملت صنوفًا متنوعة منها: التاريخية والفقهية وبعضًا مما صنف بالكوارث كالزلازل والطواعين.

وبناءً على ذلك، فإن الدراسة تهدف إلى تحقيق الأهداف التالية:

1 – تَتبُع أهم الكوارث الطبيعية والأوبئة التي حدثت في بغداد خلال حقبة الدراسة.

2 – بيان الأسباب التي كانت وراء بعض الكوارث الطبيعية لا سيما الفيضانات

4– التعرّف على آثار الكوارث: الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية.

الكوراث: مفهوم المصطلح

لم يرد في معاجم العربية تفصيل لمعنى الكارثة إلا ما تعنيه من الشدة والمشقة. " غمرة كارثة: أي شديدة شاقة" (ابن منظور، 1993، ج2، ص180). ولم تفصل المعاجم كثيرا في المفهوم. ولما حاولت المعاجم العربية المعاصرة تعريف الكوارث الطَّبيعيَّة، فإنها لم تجعل الأوبئة والأمراض والجراد والطاعون ضمن مفهومها، فقالت: "هي الناتجة عن الطبيعة: كالزلازل والفيضانات والأعاصير (Mukhtar, 2000, vol. 3, p. 1913). في المقابل يرد في التراث اللغوي والفقهي مصطلح جائحة والتي بمفهومها تكون أوسع مما ذكر في تفسير الكارثة. والجائحة من جاح يجوح جوحا. والجوح: الهالك والاستئصال. والجائحة: الشدة التي تجتاح المال، من سنة (قحط) أو فتنة. يقال: جاحتهم الجائحة، واجتاحتهم، وجاح: هلك المال، وأجاحه، بمعنى، أي

أهلـــكه بالجائحة (Ibn Manzoor, 1993, Vol. 2, p. 431, Al-Zubaidi, Vol. 6, p. 355).

وقد عرف الفقهاء الجائحة:" أنها كل الآفات السماوية التي لا يد للإنسان فيها، والتي لا يستطيع التحرز منها ولا دفعها إن علم، كالقحط، والجراد، والريح، والغبـــار المفـــسد ونحوهـــا (Ibn Salmon, 1301 AH, Vol. 1, p. 251).

وتنضوي الجوائح ضمن تعريفات الفقهاء مختلف أنواع الكوارث، فقد حددها أحدهم في سته عشره نوعًا، ونظمها في هذا الرجز(Alish, 1301 AH, p. 32; Mazdur, 2009, p. 17):

قحـــط وثلـــج ثـــم غيـــث بردهـــا ريـــح وعفـــن وجـــراد وفارهـــا
طيـــر ودود غاصـــب ثـــم ســـارق غـــرق وجـــيش والمحـــارب نارهـــا

وكل الجوائح التي ذُكرت لا خلاف فيها بين الفقهاء، إلا الجيش والسارق والسلطان الجائر فهي محل خلاف (Mazdour, 2009, p. 17).

ومما سبق فإن لفظة الجائحة تماثل إلى حد كبير مصطلح الكارثة، فهي تشمل كل ما هو سماوي أي من السماء: كالغيث المسبب للغرق، والصواعق، ومنها ما هو أرضي: أي من باطن الأرض: كالزلازل والبراكين، ومنها ما هو مفتعل كالحريق والهدم والتدمير.

وحتى نستطيع الكشف عن تلك الكوارث وتأثيراتها المختلفة على بغداد ومجتمعها، تم تقسيم الدراسة إلى عدة محاور، نتناولها تباعا.

أولا: الكوارث الطبيعية

أ) الأوبئة:

تزامن دخول البويهيين بغداد سنة (344هـ 955م) تعرضها لوباء، كان مصدره بلاد أصفهان. وقد اقترن ذلك الوباء بمرض مركب بين الدم والصفراء. ثم أخذ بالانتـــشار في أطـــراف العراق وجنوبها إلى أن وصـــل بغـداد، لكنه لـــم يخلف إلا وفيات محدودة على حد قول ابن الجوزي (Ibn aljawzi, 1992,vol.14,p.98).

لم تشر المصادر إلى أوبئة خلال الثمانين سنة التالية، إلى أن جاء عام (423هـ \1031م) فكانت بغداد على موعد مع وباء وصف بالشديد. كان ذلك الوباء جزءًا من وباء عام ضرب بلاد المشرق الإسلامي، والذي وصف بأنه " زاد على مجاري العادة". بدأ الوباء في بلاد الهند، ثم أخذ بالانتشار غربا، فشمل بلاد غزنة وخراسان وجرجان والري وأصبهان ونواحي الجبل والموصل، وقد خلّف الكثير من الموتى، من ذلك أن زاد عدد الوفيات في أصفهان وحدها على أربعين ألف وفاة. ورافق هذا الوباء مرض الجدري الذي كانت آثاره كارثية على مدينتي بغداد والموصل، فمات ببغداد " من الصبيان والرجال والنساء ما زاد على حد الإحصاء". وكان السبب في كثرة هذه الخسائر البشرية استمراره قرابة نصف عام من حزيران إلى تشرين الثاني. (Al'antaki, 1990, p.438, Ibn aljawzi, 1992, vol.15, p.23.

وبعد عقد من الزمان، تعرضت بغداد (437هـ\1045م) لوباء عام آخر، مات من جرائه الكثير، ترافق الأمر مع نقص في المؤن، فعمت المجاعة "حتى أكل الناس الميتة". (Ibn Al-Atheer, 1997, Vol.8,p.262)

وتكرر مشهد الفاجعة في المشرق الإسلامي عموما في العام (449هـ/1058م) عندما اجتاح الوباء بلاد ما وراء النهر، وقد تعاظمت الوفيات في ذلك الإقليم، إلا أن ابن الأثير بالغ في عدد المتوفين، عندما ذكر أن عددهم زاد عن مليون وستمائة ألف إنسان، " ففرغت الدروب والأسواق من الناس". أما أذربيجان، فلم يسلم من أهلها إلا القليل. وانتشر الوباء حتى اجتاح أطراف العراق الجنوبية، فعمّ الأهواز وأعمالها، والكوفة ونواحيها، والنيل "وطبق الأرض" (Ibn Al-Atheer, 1997, Vol. 8, p.144). ورغم عدم إيراد المصادر لعدد الموتى إلا أن رواية ابن الجوزي التالية تشي بعظم المصاب وكثرة الموتى:" وكان أبو محمد عبد الجبار بن محمد الفقيه معه سبعمائة متفقه فمات، وماتوا سوى اثني عشر من الكل" (Ibn aljawzi, 1992,vol.16, p.17, Ibn Kathir, 1997, vol. 15, p. 742).

ثم وقع ببغداد في عامين متتاليين (455–456هـ/1063–1064م) وباءان، لكنهما كانا أقل ضراوة مما سبق. رافق الأول انتشار مرض الجدري، وموت الفجأة (Ibn aljawzi, 1992, vol. 16, p. 83). أما الثاني فقد رافقه حرّ شديد، وفساد في الهواء (Ibn aljawzi, 1992, vol.16, p. 18).

وكانت تأثيرات وباء (469هـ/ 1076م) شديدة القسوة على سكان المناطق المحيطة ببغداد "ريف بغداد" فقد خلفت العدد الكبير من الموتى في صفوف الفلاحين، حتى لم تجد الغلال من يجمعها (Ibn Al-Atheer, 1997, Vol. 8, p. 262).

وبعد قرابة ثلاثين عاما كانت بغداد سنة (478هـ/1085م) على موعد مع وباء الطاعون الذي خلّف أكثر من عشرين ألفا من الموتى وبلغ من الشدة، أن الموتى لم يجدوا من يدفنهم، فكان الحفارون يحفرون بالليل ليدفنوا من مات بالنهار. (Ibn aljawzi, 1992,vol.16, p.240). ونتيجة لكثرة أعداد الموتى، فقدت الكثير من محلات بغداد ساكنيها، فقد فرغت المحول وشطر من محلة التوثة، ومحلة باب البصرة، وحربي. وصَاحبَ ذلك الطاعون انتشار أمراض أعجزت الأطباء عن علاجها، منها: مرض الصفراء، والخوانيق، والأورام، وأمراض الطحال، كما انتشر موت الفجأة. وختم الوباء آثاره اجتياح مرض الجدري الأطفال. ولم تتوقف آثار الطاعون على البشر، بل أعقب ذلك تفشيه في الحيوانات والبهائم. وقد خلّف يأسًا، أفقد الناس الأمل في الحياة، حتى أنهم كانوا "يوصون في حال صحتهم". وزاد الأمر سوءًا بعد هبوب ريح سوداء حملت رمال الصحراء "كالجبال يسير بن السماء والأرض، فكثر الموت. واستغل اللصوص الأمر، فعاثوا فسادًا في الأسواق والحمامات" (Ibn aljawzi, 1992, vol.16, p.240).

وفي العام التالي (479هـ/1086م) تكرر انتشار الوباء من جديد، فلم يفق الناس من طاعون السنة المنصرمة، حتى تجدد بعد بضعة أشهر، وكان أشد أمراضه فتكا "حمى الربع الذي يعقبه الموت"؛ ولكثرة المرضى وقلة توفر العلاجات، تدخل الخليفة المقتدي، بتوزيع الأموال والأدوية على الفقراء(Ibn aljawzi, 1992, vol.16, p. 257).

وخُتم العام (498هـ/1104م) بمرض الجدري الذي تحول إلى وباء عام شمل مختلف أرجاء العراق، والذي خلّف –على جاري العادة– أعدادا كبيرة من الموتى (Ibn Al-Atheer, 1997, Vol. 8, p. 514, Al-Dhahabi, 2003, Volume 10, p. 692) ؛

ب- الزلازل

سجل ابن الجوزي وقع عدة هزات أرضية حلت ببغداد في فترات متفاوتة، لكن لم يتم رصد آثار كبيرة على العمران أو البشر. كانت أولها سنة (347هـ/958م)(Ibn aljawzi, 1992,vol.14,p.114) . وبعد عشرين عامًا، أي في العام (367هـ/977م) وقعت زلزلة أخرى (Ibn aljawzi, 1992, vol.14, p.252).

وجاء في حوادث سنة (464هـ/1071م) أن بغداد شهدت ست هزات في ليلة واحدة، لكنها لم تخلف خسائر بشرية أو مادية (Ibn aljawzi, 1992, vol.16, p. 132).

وقد سجل ابن الجوزي مشاهداته لزلزال بغداد سنة (529هـ/ 1134م) "وزلزلت بغداد مراراً لا أحصيها، وكان مبتدأ الزلزال يوم الخميس حادي عشر شوال، فزلزلت يومئذ ست مرات، ودامت كل يوم خمس مرات أو ست مرات إلى ليلة الجمعة سابع عشر من شوال ثم ارتجَّت يوم الثلاثاء حتى تفرقت السقوف وانتثرت الحيطان، ومع ذلك لم يسجل ابن الجوزي وقوع ضحايا.(Ibn aljawzi, 1992, vol.17, p. 29) . كما رصد ابن الجوزي أيضا تعرض بغداد لزلزلة أخرى وقعت ليلة الثلاثاء أربع وعشرين ذي القعدة سنة (538هـ/1143م) (Ibn aljawzi, 1992, vol.18, p. 33).

ويؤرخ ابن الجوزي في أحداث سنة (544هـ/1149م) لزلزلة عظيمة، استمرت "تموج نحوا من عشر مرات" (Ibn aljawzi, 1992, vol.18, p. 72).

من خلال ما سبق، يلاحظ أن الزلازل لم تكن ذات تأثيرات مدمرة على بغداد، ويعود ذلك إلى وقوع المدينة خارج خط الزلازل الممتد أقصى شمال العراق ضمن جبال زاجروس وطوروس التي تمثل الحدود بين العراق وبلاد فارس وتركيا. لذلك فإن تأثيرات الزلال تكون في المناطق الشمالية من العراق، في مناطق: خانقين وشرق السليمانية وشمال دهوك وشمال أربيل؛ لذلك فإن ما حلّ ببغداد من "رجفات" زلزالية كان ارتدادات خلفتها زلال وقعت في مناطق النشاط الزلزالي في المناطق المجاورة كبلاد فارس، والتي تؤدي الى تصدع وارتباك داخل القشرة الأرضية بالعراق والأناضول (Iraqi Ministry of Transport, 2020).

جـ) موجات الجراد

هاجمت بغداد وريفها في فترات مختلفة موجات من هجمات الجراد، وكانت سطوة الجراد واضحة على الغلال الموسمية، إضافة الى الأشجار المثمرة لا سيما النخيل. ومما ذكرته المصادر موجات الجراد سنة (342هـ / 952م) والتي لم تقتصر على بغداد وحدها، بل غطت تلك الأسراب العراق، والأهواز، وديار الموصل، والجزيرة والشام (Ibn Al-Atheer, 1997, Vol.7,206). وكذلك وردت في عامي (344هـ/954م)، و(347هـ/ 957م) أسرابَ الجراد على بغداد، أتت على الغلات الصيفية والأثمار وأضرّت كذلك بالشجر (Ibn aljawzi, 1992,vol.14,p.98). وفي

العام (427هـ/1035م) واجه العراق وبغداد موجة "جرادٌ أسود لم يُعهد قبلَ ذلك" (Sibt Ibn al-Jawzi, 2013, vol. 18, p. 409, Al-Dhahabi, 2033, Volume 7, p. 759).

ووصف ابن الجوزي أسراب الجراد التي داهمت العراق ومنها بغداد سنة (456هـ/1063م) بأنها كانت" كعدد الرمل والحصى، فأكل الغلات، فكدى أكثر الناس وجاعوا، وطحن السوادية الخرنوب مخلوطا بدقيق الدّخن، ووقع الوباء "(Ibn aljawzi, 1992, vol.16, p.171).

ويظهر أن سطوة الجراد في بعض السنين كانت مدمرة للغلال حتى أنه في سنة (460هـ/1067م) "أكل ما وجد، حتى عدم البقل، فبيع ما جلب منه من عكبرا بالميزان" (Ibn aljawzi, 1992, vol.14, p. 147).

وكانت أسراب الجراد سنة (541هـ/ 1146م) قد عمت العراق "كان بالعراق جراد كثير أمحل أكثر البلاد" (Ibn Al-Atheer, 1997, Vol. 9, p. 148).

د) انحباس المطر:

بغداد مدينة كبيرة، لها امتداها الجغرافي من عدة جهات، ويعد هذا الامتداد الطبيعي المصدر الأساسي لتوفير ما تحتاجه من مواد غذائية، عمادة الزراعة وتربية الماشية. لذلك تعتمد المدينة على مياه نهر دجلة وفروعه، لكنها في الوقت نفسه تعتمد على مياه الأمطار بشكل كبير في عملية الري والزراعة. لذلك فإن أي نقص في الأمطار ينعكس سلبا على الزراعة ويتحول إلى كارثة في حال انحباسه بالكلية، فإن تأثيره لا يتوقف على الزراعة، بل يمتد إلى الأبدان على حد قول ابن الجوزي في وصفه عام (422هـ/1030م) "فأصاب أكثر الناس نزلات في رؤوسهم وصدورهم معها حمى وسعال....، وكان السبب تأخر المطر" (Ibn aljawzi, 1992, vol. 18, p. 205). وتكرر انحباس الأمطار (448هـ/1056م) فكان سببا لارتفاع الأسعار، ولكن الأمر زاد سوءًا إذ رافقته هجمات الجراد، التي تأكل غالب ما نبت من الزروع (Ibn Al-Atheer, 1997, Vol. 7 p. 226)

إن ما خلفته حالة الجفاف بسب انحباس الأمطار من مضاعفات اقتصادية، يعكس العلاقة القوية بين كمية الهطول المطري وتحقيق مفهوم الأمن الغذائي لمجتمعات تقوم حياتها على الأرض ومنتجاتها؛ لذلك كلما حدث اضطراب أو تغير مناخي فإن انعكاساته تكون مباشرة في حياة السكان، فترتفع الأسعار وتقل المؤون.

ثانيا: أثر الكوارث الطبيعية على بغداد:

أنشأ الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور سنة (145 هـ \762م) مدينته المدورة المشهورة بغداد على الضفة اليمنى من نهر دجلة في الزاوية المتكونة بين مجرى نهر الصَّرَاةُ ومجرى دجلة شمالًا، وسماها مدينة السلام (Jawad, 1958, p. 4). ويلاحظ أن من جملة أسباب اختيار المكان: الماء والميرة، يضاف إليها الموقع الجغرافي كانت هي العوامل الرئيسة في اختيار المنصور موقع العاصمة الجديدة .(yaqut, 1995, vol.1 , p. 458).

كانت مساحة مدينة المنصور المدورة على ما ذكره الخطيب تقدر بمئة وثلاثين جريبًا، ومساحة خندقها وسورها ثلاثون جريبًا (Al-Khatib, 2001, Volu. 1, p. 378). وقد توصل سوسة إلى مساحة مدينة المنصور تقارب ثلاثة كيلومترات مربعة (Sousse, 1963, Vol. 1, p. 211). والملاحظ أن التخطيط الدائري الذي اعتمده المنصور لمدينته، لم يعطها قدرا من النمو والاتساع، فاتجه الناس بعد ذلك إلى البناء خارج الأسوار (Al-Ani, 1981, p. 368). فاتسعت قرية الكرخ الواقعة جنوب المدينة وصارت تعرب باسم محلة الكرخ، حتى غدت من أكبر المحلات ببغداد. وقد ذكر اليعقوبي أنها كانت من السعة بحيث تمتد مقدار فرسخين طولًا ومقدار فرسخ عرضًا (Al-Yaqoubi, 1432 AH, p. 37) أي ما يعادل (3كم) مربعًا. كما نشأت شمال الكرخ محلتا: باب البصرة وباب الكوفة. وفي شمال المدينة نشأت محلات: الحربية، وباب التبن والقطيعة والزبيدية. ومحلة الشارع في الناحية الشرقية. وإلى الغرب من مدينة المنصور نشأت خمسة محلات متصلة بعضها ببعض: محلة الرملية، محلة العتابيين. جهال سوج، والنصرية، ودار القز (Sousse, 1963, vol. 1, p. 212). ونتيجة لهذا التوسع بلغت مساحتها في منتصف القرن الثالث كما ذكر الخطيب نقلًا عن ابن طيفور (ت280هـ/893م) ثلاثة وخمسون ألف جريب وسبع مائة وخمسون جريبًا (Al-Khatib, 2001, Vol. 1, pg. 438). وهذا يعكس الازدهار الحضاري واستقرار الأوضاع السياسية في المدينة (انظر: خريطة بغداد، ملحق1).

مع نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي اختفت مدينة المنصور عن الأنظار، وتداخل ما بقي منها تدريجيا مع الأبنية التي قامت بمحيط أسوارها من الخارج (Lestering, 1936, p. 49). ثم شهدت بغداد تبدلات خططية مهمة في القرن الخامس الهجري، بعد وصول السلاجقة للحكم، بحيث أصبح وجه بغداد متبدلًا في نهاية هذا القرن حين اجتازت الدولة السلجوقية أوج عزها وبدأت بالانحطاط (Makdisi, 1984, p.9). وليس أدل على ذلك من قول

ياقوت في وصف الحالة التي صارت عليها الكرخ" وكانت الكرخ أولا في وسط بغداد والمحالّ حولها، فأما الآن فهي محلة وحدها مفردة في وسط الخراب" (yaqut, 1995, Volume 4, pg. 448).

ترافق الأمر أن حلت ببغداد العديد من الكوارث الطبيعية والتي أسهمت سلبًا في بنيتها الحضارية، فنجد أثارًا مباشرة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية، وآثار أخرى تراكمت مع الزمن، فغيرت طبيعتها العمرانية، أدت إلى فقدان المدينة الكثير من معالمها التاريخية، فما أن جاء القرن السادس الهجري حتى فقدت معظم جانبها الغربي الذي حلّ به الخراب.

أ. انعكاس الاضطرابات السياسة على عمارة بغداد

لا يمكن تبرير أن الخراب والتدهور الذي أصاب بغداد عائد فقط للكوارث، بل هناك أسباب ربما فاقت في نتائجها ما حلَّ ببغداد من خراب خلال حقبة الدراسة (السيطرة البويهية والسلجوقية) فقد كانت السياسة المذهبية التي مارسها البويهيون في الانحياز للشيعة أن تولدت عنها الفتن الطائفية بين المكونين الرئيسين للمجتمع البغدادي: السنة والشيعة، فكان الاقتتال الطائفي بين أهل المحال، والذي كان له أثره الكبير في تدهور أحوال بغداد لا سيما الجانب الغربي منها، تلك الفتن التي استعرت في القرنين الرابع والخامس الهجريين، هذه الفتن انعكست آثارها السلبية على مختلف مناحي الحياة الاقتصادية منها أو الاجتماعية، فضلًا عن السياسية؛ فقد سجل ابن الجوزي في منتظمه، وابن الأثير في تاريخه أخبار ما يزيد على أربعين فتنة خلال القرنين، وقد زادت حدتها في أواخر العصر البويهي حيث بدأ الضعف والاضطراب في إدارتهم، غير أن هذا الوضع لم يتحسن بعد سيطرة السلاجقة على بغداد(Al-Ali, 1985, pp. 63-64).

فعلى الرغم من قيام البويهيين ببعض الإصلاحات في مجال الأرض ونظام الري، إلا أن تلك الإصلاحات كانت آنية، فمع فراغ الخزينة والحاجة للأموال لتجهيز الجيش وللنفقات، لجأ معز الدولة إلى نظام الإقطاع العسكري، الذي كان له دور خطير في خراب الأرض الزراعية، أدى كذلك إلى أن" فسدت المشارب (أي أعمال الري) وبطلت المصالح وأتت الجوائح على التنّاء (الزُّرّاع) ورقّت أحوالهم فمن بين هارب جال وبين مظلوم صابر ... فبطلت العمارات" (مسكويه، 2000، ج6، ص130)، فكانت النتيجة ما توصل إليه الدوري " أن معز الدولة أراد اصلاح نظام الري وإحياء الأرض المهملة، كما أنه أراد تكوين اقطاعات عسكرية؛ ليربط الجند بالأرض، فكانت النتيجة خراب نظام الري ودمار الزراعة، لعدم تمكن الحكومة من ضبط الجند" (Al-Douri, 1945, pp. 264-265). وكانت نتيجة إهمال قنوات الري وسوء توزيع المياه حدوث فيضانات أضرت بالسواد

وبغداد على حد سواء، كما أدى سوء الوضع الاقتصادي، وتعاقب الفتن إلى تكرار الغلاء والمجاعات (Al-Douri, 1945, p. 279).

لم يتحسن الوضع بعد هيمنة السلاجقة على بغداد، حيث عملوا منذ مجيئهم إلى إظهار عدائهم لأهل الكرخ، والعمل على إيذائهم (Al-Ali, 1985, pp. 61-62). يذكر ابن الجوزي أن رئيس الرؤساء أبو القاسم علي بن الحسن ابن المسلمة أمر سنة(448هـ/1065م) "بأن تنصب أعلام سود في الكرخ، فانزعج لذلك أهلها، وكان يجتهد في أذاهم" (Ibn aljawzi, 1992, vol.16, p. 6) .

وقد دفع أهل الكرخ ثمنًا باهظًا لمساندتهم للبساسيري عندما دخل بغداد سنة (450هـ/ 1067م) فما أن انسحب من المدينة، حتى هوجم الكرخ "فأحرقوا الأسواق والدروب، وأخذوا الناس فعاقبوهم، واستخرجوا الدفائن، ودام النهب والحريق والقتل حتى خربت بغداد ودُثِرَتْ من الجانبين" (Sibt Ibn al-Jawzi, 2013, Vol. 19, pg. 95).

وكان لتلك الفتن الطائفية آثارها الخطيرة على عمارة المدينة بفعل الحرائق الناجمة عن الهجمات المتبادلة بين أهل المحال، أو تلك التي افتعلها العسكر خاصة في الحقبة السلجوقية، والتي أدت إلى إحراق الكثير منها. فقد وقع في منطقة الكرخ سنة (362هـ/972م) حريق هائل، أحصى ما احترق منها: سبعة عشر وثلاثمائة دكان، وثلاثمائة وعشرين دارًا، وثلاثة وثلاثين مسجدًا (الذهبي، 2003، ج8، ص179). ثم تكرر المشهد بعد قرابة عشرة سنوات، ففي سنة (371هـ 981م) تعرضت لحريق عظيم " استمرت ألسنة النيران مشتعلة أسبوعًا (Ibn aljawzi, 1992, vol. 14, p. 281). كما تعرضت لحريق محلة نهر الدجاج مماثل سنة (380هـ990م) (Ibn aljawzi, 1992, vol.14, p. 344).

وعلى الرغم مما خلفته الحرائق السابقة من آثار سلبية، إلا إن ما خلفه حريق سنة (449هـ/1066) كان الأشد، لا سيما أنه جاء بعد الوباء الذي اجتاح بغداد والعراق، فبعد عدة أشهر من وقوع الأخير، اشتعلت النيران في عدد كبير من محلات الجانب الغربي من بغداد وأسواقها، فاحترقت قطيعة عيسى، وسوق الطعام، والكبش، وأصحاب السقط، وباب الشعير، وسوق العطارين، وسوق العروس، وباب العروس، والأنماط، والخشابين، والجزارين، والنجارين، والصف، والقطيعة، وباب محول، ونهر الدجاج، وسويقة غالب، والصفارين، والصباغين، وغير ذلك من المواضع (Ibn aljawzi, 1992, vol. 14, p. 344) .

ومن وصف الصابئ – شاهد العيان– الذي زار المكان بعد الحريق، يستدل على شدة التدمير الذي ألحقه بالجانب الغربي، يضاف إلى ذلك ما خلّفه من هلع في نفوس السكان حتى أنهم هجروها "فرأيت أمرًا موحشًا يدلُّ على خراب البلد وانقراضه، ورأيت المساكن قد علاها التُّراب وعليها دلائل السخط والانتقام. ولم تقع عيني على من عليه ثوب صحيح ولا نظيف، ورأيت في قطيعة عيسى خمسةَ أنفُس، وبطلت الصلاة في جوامع بغداد إلا جامع الخليفة" (Sibt Ibn al-Jawzi, 2013, Vol. 19, p. 14).

وتكرر مشهد الحريق بالكرخ سنة (451هـ/1068) ولكن هذه المرة كانت أكبر ضحايا الحريق خزانة الكتب التي وقفها أردشير الوزير ونهبت بعض كتبها، وقد شارك رجال السلطة في النهب، كان منهم عميد الملك الكندري فبدل أن يحمي ما تبقى من المكتبة ويعيد ترميمها "جلس يختار من الكتب خيرها"، وكان بها عشرة آلاف مجلد وأربعمائة مجلد من أصناف العلوم. (Ibn Al-Atheer, 1997, Vol. 8, p. 166)

استشعرت السلطات السجلوقية "متأخرا" خطورة الحرائق على التركيبة السكانية للكرخ، فحاولت إعادة إعمار أسواقه، غير أن تلك المحاولة لم تفلح؛ لأن كثيرًا من أهلها كانوا قد هجروه إلى غير رجعة، فقد انتقل الكثير منهم إلى مناطق جديدة، خاصة أطراف نهر عيسى، والتي شهدت توسعًا منذ منتصف القرن السادس الهجري (Al-Ali, 1985, p. 67).

ب) الفيضانات وأثرها على بغداد

كانت الفيضانات عاملا أساسيا في تغير معالم بغداد، بل كانت من أشد معاول الهدم لبنيتها التحتية ومعالمها العمرانية، فاقت تلك التأثيرات الكارثية قدرة الدولة والمجتمع على إعادة تأهيل ما أصابه الضرر. لذلك فقدت المدينة مع السنين أكثر بنيانها وعمارتها، فتقلصت من حيث سعة مساحتها، وانحصر معظم عمرانها في الجانب الشرقي الواقع داخل السور الكبير (Sousse, 1963 vol.1, p. 243) . وهذا ما نلمسه في وصف ابن جبير عند زيارته لبغداد سنة (580هـ/1184م) "فأما الجانب الغربي فقد عمه الخراب واستولى عليه، وكان المعمور أولا. وعمارة الجانب الشرقي محدثة لكنه مع استيلاء الخراب عليه يحتوي على سبع عشرة محلة، كل محلة منها مدينة مستقلة" (Ibn Jubair, 1981, p. 178; Sousse, 1963, Vol. 1, p. 243).

بدأت عمارة بغداد لا سيما الجانب الغربي منها بالانكماش والتراجع مع القرن الرابع الهجري، وكان ذلك مرتبطا بالتغيرات السياسية، فبعد سيطرة البويهيين على بغداد، قاموا بنقل الثقل السياسي للمدينة إلى الجانب الشرقي، حيث أنشأوا دار المملكة البويهي، ومن بعدهم أنشأ السلاجقة دار السلطنة بالجانب الشرقي أيضًا، فكان ذلك مدعاة إلى توسع الجانب الشرقي على الجانب الغربي، فمؤسسات الدولة وخدماته، كانت مصدر جذب للاستيطان، فانتقل الكثير من أهل الجانب الغربي إلى شرقيها. يضاف إلى ذلك تأثير أنهر بغداد عليها، والتي أسهمت عنوة في تغير معالم المدينة وخططها، من خلال ما كانت تخلفه الفيضانات المتتالية.

وعلى الرغم من تعرض بغداد للفيضانات إذ يعود إلى منتصف القرن الثاني للهجرة، إلا إن المدينة لم تتعرض لتأثيرات كبيرة في معالمها، والسبب ربما يعود إلى صغر حجم المدينة آنذاك وحجم السكان. ومع ذلك نجد اهتماما من الدولة في محاولة استباقية لتخفيف حدة الفيضانات، فأصبحت الحاجة شديدة لمراقبة حركات الأنهار وتسجيل مناسيب المياه لا سيما في موسم الأمطار، حيث تفيض لا سيما نهر دجلة، ويهدد المدينة بالغرق، ويُستدل مما كتبه المؤرخون على أن هناك مقياس نصب على ضفتي نهر دجلة في بغداد، أشار الى ذلك ابن الجوزي في أحداث سنة (293هـ/ 905م)" ونصب المقياس على دجلة من جانبيها طوله خمسة وعشرون ذراعا، على كل ذراع علامة مدورة، وعلى كل خمسة أذرع علامة مربعة، مكتوب عليها بحديدة علامة الأذرع، تعرف بها مبالغ الزيادات (Ibn aljawzi, 1992, vol.13, p. 45, Sousse, 1963, vol. 1, p. 282).

خلال الحقبة البويهية لم تشر المصادر إلى فيضانات شديدة، وإنما كانت الروايات التاريخية تشير إلى زيادة في دجلة. لكن البداية الحقيقية لتأثير الفيضان على بغداد كانت مع الحقبة السلجوقية، ففي سنة (454هـ/1062م) فاض نهرا دجلة وتامرا (نهر ديالى) في وقت واحد، فكان من جملة ما تهدم، مخزن دار الخلافة، ودار الوزير، وكذلك فسدت الكثير من الأسلحة والمعدات في خزانة السلاح، إضافة إلى تهدم ثلاثمائة وثمانين دارا، بل وصل الأمر أن تدخل القوارب إلى وسط البلد (Al-Dhahabi, 2003, Vol. 14, p. 665) وقد تميز هذا الفيضان بطول مدته فبدأ في السابع عشر من آذار من تلك السنة واستمر حتى نيسان، وكان ذلك نتيجة لسقوط الأمطار التي استمرت ثمانين يومًا دون انقطاع، وقد بلغ زيادة نهر دجلة إحدى وعشرين ذراعًا وزيادة نهر تامرا

(ديالى) اثنين وعشرين ذراعًا. واقتصر الغرق على الجانب الشرقي من بغداد، ولم يحدث ضرر في الجانب الغربي على ما يظهر .(Sousse, 1963, vol. 1, p. 298).

ثم غرق الجانب الشرقي من جديد سنة (461هـ /1068م) وتظهر شدة تأثيره من ارتفاع منسوب زيادة دجلة التي وصلت إلى إحدى وعشرين ذراعا "حتى بلغ قصر الثريا " وهذا يعني أن الجانب الشرقي الذي كان يحيطه السور أصبح تحت الماء. هذه الزيادة " فجّرت بثقًا (كسرا) في دار الغَربة وامتد إلى مشهد النذور" (Ibn aljawzi, 1992, vol. 16, p. 114) . وصفه ابن البناء – الذي وصلتنا قطعة من يومياته–" في هذا اليوم الخميس الثالث عشر من جمادى الأول ازداد دجلة زيادة كبيرة، وقيل إنه بلغ عشرين ذراعًا، فانقطعت البيوت والحوانيت التي على الشواطئ". ثم يضيف في وصف مشاهداته لما خلفه الفيضان من تخريب وتهديم للمعالم العمرانية بأنه هدم الكثير من مخازن الحبوب والغلال، وبقي الماء راكدا لمدة أسبوع (Makdisi, 1984, pp. 46-47).

وكان فيضان سنة (466هـ/ 1073م) الأشد تأثيرا من كل ما سبقه من فيضانات أصابت المدينة، فقد كان الغرق عامًا، شمل بغداد كلها. والسبب في تلك الزيادة غير المعهودة غزارة الأمطار التي سقطت في الموصل ومنطقة الجبال شمال العراق، وكان دخوله ليلًا يصحبه ريح شديدة، تفاجأ به الناس، فلم تكن لهم القدرة على مواجهته "حيث طفح الماء من البرية إلى الحريم، وطغى على أسوار المحال فهدمها، ونزل من فوقها وأسفل منها، وصعد من تحت الأرض، وقلع الطوابق، ونبع من الآبار والبلاليع، فرماها في ليلتها، فصارت تلالًا عالية، وفي صباح اليوم التالي دخل إلى دار الخلافة من باب النوبي، حتى خرج الماء على الخليفة من تحت السرير الذي كان جالسًا عليه"(Ibn aljawzi, 1992, vol. 16, p.154).

كان هذا الغرق مدعاة للتفكير ببناء سور لحماية المدينة، وقد شرع ببنائه سنة (488هـ/1095م) وكان ارتفاع السور مائة قامة. وأعيد تجديده مرة أخرى في عهد الخليفة المسترشد بالله (517هـ/1123م)، وجعل له أربعة أبواب (Ibn Al-Fouti, 2008, pp. 51-53).

ج) الآثار الاقتصادية للكوارث الطبيعية

كان التناوب للكوارث بمختلف أنواعها قد ترك أثاره السلبية في حياة الناس، فانتشر الفقر، وزادت الأمراض، وقلّت المؤن، فما كان الناس يفيقون من وباء أو مرض، حتى يفاجئهم فيضان، يغرقهم ويغرق سبل عيشهم، فقد تسببت تلك الكوارث بأزمات اقتصادية كبيرة، كانت سببًا في فقدان الأمن الغذائي، فما أن تحل الكارثة، حتى تفقد المؤن "الغلات"، والتي تكون سببًا لارتفاع الأسعار.

تفاوتت درجات حدتها تبعًا لحدة الكارثة، ففي سنة (373هـ/982م) بلغ كُر الحنطةِ ثلاثةَ آلاف درهم، والشعيرِ ألفًا وخمس مئة درهم، ثم زاد سعرُ الحنطة فبلغ الكرُّ أربعةَ آلاف درهم، والشعيرُ ألفي درهم (Ibn Al-Atheer, 1997, Vol. 7, p. 403, Sibt Ibn al-Jawzi, 2013, Vol. 16, p. 18). وبلغ سعر رطل الخبز سنة (382هـ/992م) أربعين درهمًا (Ibn Al-Atheer, 1997, Vol. 7, p.455).

وفي بعض الأعوام تكالبت على الناس كوارث عدة، زادت معاناتهم الاقتصادية، كما الحال سنة (348هـ/959م) فقد شهد العراق انحباس الأمطار مع موجات الجراد " فأكل ما كان قد نبت من الخضروات (Ibn Al-Atheer, 1997, Vol. 7, p. 226).

وشهد عام (423هـ /1031م) اجتماع الوباء انتشار العواصف الرملية التي " هبط كالمطر وأتلفت الأشجار، وزاد الأمر، شح الأمطار ذلك العام، مما دفع سكان المدن إلى النزوح إلى مجاري الأنهر، فنصبوا خيامهم هناك فترة من الزمن (Ibn al-Abri, 1991, p. 85).

وترافق فيضان دجلة سنة (493هـ/1002م) مع انحباس المطر، فارتفعت الأسعار، حتى بلغ سعر كُرّ الحنطة سبعين دينارا (Ibn aljawzi, 1992, vol.18, p. 439). والأمر عينه حدث سنة (502هـ/ 1108م) فقد زادت دجلة زيادة عظيمة، أدت إلى غرق الغلات الشتوية والصيفية، ارتفعت بسببها الأسعار حتى بلغت كارة الدقيق الخشكار عشرة دنانير " (Ibn Al-Atheer, 1997, Vol. 7, p.573).

وكان لغياب الأمن دوره في الإضرار بالأوضاع الاقتصادية ، ففي سنة (448هـ/1056م) انقطع وصول التجارة إلى بغداد" لخوف النهب". كما اقترنت المعانة ذلك العام بانحباس الأمطار، فعمّ الغلاء، وارتفعت الأسعار حتى بيع رطل لحم بقيراط، وأربع دجاجات بدينار، ورطل شراب بدينار، وسفرجلة بدينار، ورمانة بدينار" (Ibn Al-Atheer, 1997, Vol. 8, p. 144).

د) الآثار الاجتماعية للكوارث الطبيعة:

إن توالي الكوارث ترك حالة من البؤس بين الناس، لدرجة أن اضطر بعضهم إلى أكل الجيف، كما حدث سنة (449هـ/1055م)، بل وصل الأمر في ظل فقدان المؤن أن رجلًا استبدل جريبين من أرضه– ثمنها ثماني عشرة دينارًا– مقابل خمسة أرطال خبز. ومما جاء في وصف

هول الفاجعة ذلك العام ما أورده ابن الجوزي "وليس للناس شغل في الليل والنهار إلا غسل الأموات والتجهيز " (Ibn aljawzi, 1992, vol. 16, p.17). وكان الفقراء الأكثر تضررًا من آثار الكوارث الطبيعية حتى أنهم " كانوا يشوون الكلاب، وينبشون القبور، فيشوون الموتى، ويأكلونهم (Ibn aljawzi, 1992, vol. 1416p. 17).

أمام حالة اليأس التي كان يصل إليها الناس جراء ما كانوا يعانونه، لم يكن أمامهم إلا اللجوء إلى الله، يتقربون إليه بالتوبة "يتشفعون بالدعاء والمال، والتخلي عن المنكرات"، وإراقة الخمور، وكسر المعازف، وملازمة المساجد لقراءة القرآن (Ibn aljawzi, 1992, vol. 16, p. 18). ومن صور اليأس من الحياة هو ما أصاب الناس بعد طاعون (478هـ) أن الناس شعروا بأن الأمر نهايته الموت، بعد ما خلف من أعداد كبيرة من الموتى " حتى أنهم كانوا " يوصون في حال صحتهم" (Ibn aljawzi, 1992, vol. 16, p. 240).

وأخطر ما في الأمر التأثيرات السلبية على فئة العامة، لا سيما العمالة، فقد كانت الأشد تأثرا بالكوارث لا سيما الأوبئة، مما كان له تأثير سلبي على توفر الأيدي العاملة، حتى أن عميد بغداد لم يجد عمالًا للعمل في دار المملكة السلجوقية، مما دفعه إلى الإجبار على العمل الذي لم يسلم منه كبار القوم " الهاشميون، والقضاة، والشهود، والتجار، فكانوا يحملون اللبن على أكتافهم وأيديهم عدة أسابيع" (Ibn aljawzi, 1992, vol. 16, p. 18).

وكان للفيضانات نفس التأثير، فقد فقدت المدينة الكثير من الصناع والحرفيين والعمال الذين يعتمد عليهم في إصلاح ما فسد، فكان ذلك مدعاة لزيادة المعاناة، فتعطلت المرافق عن أداء دورها الخدمي كالحمامات والأسواق، وحتى الكثير من المساجد (Ibn Al-Atheer, 1997, Vol.7, p.133).

ومن التحولات الاجتماعية الخطيرة التي رافقت تردي الأوضاع الأمنية، وما صاحبها من كوارث، بروز قوى اجتماعية (العيارون) استغلت الأوضاع، فغدت تملك السلطة في الأحياء والمحلات. يقول مسكويه:" وحصل في كل محلة عدة رؤساء من العيارين يحامون على محلتهم ويجبونهم الأموال، ويحاربون من يليهم، فهم لذلك متحاقدون، يغزوا بعضهم بعضًا نهارًا وليلًا، ويحرق بعضهم دور بعض، ويثير كل قوم على إخوانهم وجيرانهم". (Miskaweh, 2000, Vol. 6, p. 347).

إن ظهور العيارين هو إفراز طبيعي لحالة الضعف السياسي وفساد النظام الإداري. وقد أوضح الأمر بشكل صريح أبو الفداء في حوادث سنة (426 هـ / 1035) "انحل أمر الخلافة والسلطنة ببغداد، وعظم أمر العيارين، وصاروا يأخذون أموال الناس ليلًا ونهارًا ولا مانع لهم"(Abu Al-Fida, (D. T), Vol2, p.159). وازداد الأمر خطورة أن هؤلاء العيارين استغلوا حالة الهلع والفوضى التي كانت تعقب الكوارث في نهب أموال الناس وأسواقهم، فقد شهدت سنة (416هـ/1025م) استباحة العياريين للمحال، فقتلوا، ونهبوا، بل أكثر من ذلك عمدوا إلى إحراق المحال، فكانوا ينقلون النار من مكان إلى آخر، لخلق مزيد من حالة الاضطراب والفوضى، لأجل تسهيل عمليات النهب، (Ibn Al-Atheer, 1997, Vol. 7, p. 690).

كان من أشهر زعماء العيارين شخص يدعى البرجمي، بلغ من البأس أن الناس "لم يتجاسروا على تسميته إلا أن يقولوا: القائد أبو علي" (Al-Dhahabi, 2003, Vol 9, p. 348). عانى أهل بغداد منه ومن جماعته الكثير، فلم يُفِق الناس مما حلَّ بهم من وباء سنة (423هـ /1031م) حتى فاجأهم البرجمي وجماعته، فنهبوا الأسواق والبيوت (Ibn aljawzi, 1992, vol. 15, p. 226) .

زادت كبسات العيارين ومقدمهم البرجمي، وعمّ الاقتتال بين أهل المحال، وزادت عمليات إحراق الأسواق والدور والمساجد، وقد وصل الأمر بالناس إلى مطالبة خطيب جامع الرُّصافة بالخطبة للبرجمي، وعدم الخطبة باسم الخليفة، احتجاجا على تخليه عن حمايتهم، " إن خطبت للبرجمي، وإلا فلا تخطب لخليفة ولا لملك" (Ibn aljawzi, 1992, vol. 15, p. 237). وبلغت سطوة البرجمي سنة (425هـ / 1034) أنه أصبح يتعاقد مع بعض عمال الولايات على دفع مبالغ مالية، مقابل الحماية أو عدم التعرض لهم ولولاياتهم (Ibn aljawzi, 1992, vol. 15, p. 239).

إن كل ما سبق، أسهم في خلق تأثيرات سلبية على توازن التوزيع السكاني لمدينة بغداد، حيث بدأ الناس يبحثون عن أماكن أكثر أمانًا، مما أدى إلى تزايد أعدادهم في محال على حساب المحال المنكوبة التي غادروها، فكانت تلك الهجرات مع أسبابها الأصيلة (الكوارث) عاملًا في تراجعها وخرابها. يذكر ابن الجوزي في أحداث سنة (331هـ/942م) أن الفتن دفعت الكثير من التجار إلى الهجرة بأموالهم إلى بلاد الشام ومصر" لاتصال الفتن ببغداد وتواتر المحن "(Ibn aljawzi, 1992, vol. 14, p. 27). وأمام تواتر الفيضانات خاصة تلك التي تأتي والناس نيام، لم يكن أمام من استطاع الهرب إلا الصحاري المحيطة يهرب إليها، ينصبون خيامهم على أمل العودة.

وقد لخص ابن خلدون الحال التي وصلت إليها بغداد بفعل سياسة البويهيين والسلاجقة " كانت مدينة بغداد قد احتفلت في كثرة العمران بما لم تنته إليه مدينة في العالم منذ مبدأ الخليفة فيما علمناه، واضطربت آخر الدولة العبّاسيّة بالفتن، وكثر فيها المفسدون والدعّار والعيارون، وأعيا على الحكّام أمرهم، وربما أركبوا العساكر لقتالهم ويثخنون فيهم فلم يحسم ذلك من عللهم شيئا وربما حدثت الفتن من أهل المذاهب ومن أهل السنّة والشيعة من الخلاف في الإمامة ومذاهبها، وبين الحنابلة والشافعية وغيرهم من تصريح الحنابلة بالتشبيه في الذات والصفات، ونسبتهم ذلك إلى الإمام أحمد، وحاشاه منه، فيقع الجدال والنكير ثم يفضي إلى الفتنة بين العوام. وتكرّر ذلك منذ حجر الخلفاء. ولم يَقدر البويهيون ولا السلجوقيّة على حسم ذلك منها؛ لسكنى أولئك بفارس، وهؤلاء بأصبهان، وبعدهم عن بغداد" (Ibn Khaldun, 1981, vol. 3, p. 590).

الخاتمة:

ارتبط استقرار المجتمع وتطوره بمنظومة أركانها ثلاث: سياسي، واقتصادي، وأمني. وإذا اختلّت تلك الأركان أو أحدها، فإن انعكاساته السلبية سرعان ما تظهر في بنية المجتمع، فضلا عن العمارة.

شهدت حقبة الدراسة سيطرة القوى الأجنبية: البويهيين، السلاجقة على مقدرات الخلافة العباسية، هذه السيطرة كانت نتيجة طبيعية أفرزتها التطورات السياسية والاقتصادية التي كانت تعيشها دولة الخلافة، فلم يكن أمام الخلفاء إلا التنازل عن صلاحياتهم ودورهم السياسي مقابل محاولة إنقاذ خزينة الدولة من الإفلاس، فاستحدثوا المناصب، التي كانت تمنح مقابل الأموال، ومع الأيام استولى هؤلاء على السلطة.

لم تتوقف تأثيرات هذه المرحلة على الواقع السياسي، بل كانت انعكاساتها أعمق على البنية الحضارية للدولة. وإذا اقتصرنا الحديث بما خلفته على البنية التحتية للمدينة نجد إهمالًا واضحًا في هذا المجال، فلم تكن الرعاية كافية لحماية المدينة من الكوارث لا سيما وقت الفيضانات من خلال صيانة مجاري الأنهار وشبكات الري، أو بناء السدود والاهتمام بها، مما كان له آثاره السلبية على البنية الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية لبغداد. فقد تم رصد أربع وثلاثين كارثة، كانت في أغلبها مدمرة لا سيما الفيضانات التي غيرت وجه المدينة من خلال ما فقدته من عمارتها سنة تلو أخرى.

في الوقت نفسه، تفاعلت التطورات السياسية مع الكوارث التي حلّت ببغداد، فقد شهد القرن الرابع تحولا مهما في تاريخ المدينة، تمثل بانتقال الثقل السياسي للمدينة إلى الجانب الشرقي بعد إنشاء دار الخلافة، وكذلك إنشاء البويهيين، ومن بعدهم السلاجقة دار مملكتهم في ذلك الجانب. فكان ذلك سببا في إهمال الجانب الغربي، مما كان له الأثر المباشر في وقوع الفيضانات. يضاف إلى ذلك أن المستوليين على السلطة اتبعوا سياسة مذهبية، خلّفت احتقانا، كان ينفجر بين الفينة والأخرى، ويتحول إلى اقتتال طائفي، ميدانه محلات بغداد التي حلّ بها التدمير والحرق.

وطالت التأثيرات بنية المجتمع واستقراره، فقد دفعت الفيضانات والحرائق (المفتعلة) إلى هجرة السكان إلى أماكن أكثر أمنًا، فنجد الجانب الشرقي مع مطلع القرن الرابع الهجري من بغداد – بعد أن أصبح مقر السلطة – يصبح نقطة جذب لسكان الجانب الغربي الذي غرق أكثر من مرة، وعانى من ويلات الفتن الطائفية، وجد أهله الانتقال أسلم. فكان ذلك سببا آخر في خراب الكثير من الجانب الغربي، وهذا ما لمسه ابن جبير ووصفه في رحلته إلى بغداد أواخر القرن السادس الهجري.

ولم تكن الحياة الاقتصادية وسبل المعاش بعيدة عن تأثيرات الكوارث، فما أن تحل كارثة حتى ترتفع الأسعار وتعزّ المواد الغذائية، ويزداد الفقراء فقرًا. وتكون فرصة لضعاف النفوس في السلب والنهب، والذين كانوا يستبيحون الأسواق والمنازل، مستغلين حالة الفوضى التي تخلفها تلك الكوارث، فضلًا عن اضطراب الأوضاع الأمنية، فنشط العيارون، الذين استغلوا الفراغ الأمني وشكلوا تنظيمات شبه عسكرية، تقاسموا المحال والأسواق بينهم، يجمعون من أهلها الأتاوات.

المراجع العربية

أ) المصادر الأولية:

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد (2010). *الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري*، دار الكتاب، بيروت.

الانطاكي، يحيى بن سعيد بن يحيى (1990). *تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخاء*، حققه وصنع فهارسه: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس – لبنان، 1990م.

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (1992). *المنتظم في تاريخ الملوك والأمم*، تحقيق عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.

الحميري، نشوان بن سعيد اليمني (1990). *شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم*، تحقيق حسين بن عبد الله العمري وآخرين، دار الفكر المعاصر– بيروت، دار الفكر –دمشق).

الخطيب، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (2002). *تاريخ بغداد*، تحقيق بشار عواد معروف، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ولي الدين الحضرمي (1988). *تاريخ ابن خلدون*، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت.

الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (2003). *تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام*، تحقيق بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

سلمون الكناني، بن علي بن عبد الله (1301هـ). *العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام*، ط11، المطبعة العامرية، مصر.

سبط ابن الجوزي، أبو المظفر يوسف بن قزأوغلي (2013). *مرآة الزمان في تاريخ الأعيان*، تحقيق وتعليق محمد بركات وآخرين، دار الرسالة العالمية، دمشق.

السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور المروزي (1962). *الأنساب، تحقيق عبد الرحمن المعلمي اليماني وآخرين*، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد.

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (2004). *تاريخ الخلفاء*، ط1، تحقيق حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، القاهرة.

ابن العبري، أبو الفرج غريغوروس الملطي (1991). *تاريخ الزمان، نقله الى العربية إسحق أميله*، دار الشروق، بيروت.

أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب (د.ت). *المختصر في أخبار البشر*، المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة.

مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب (2000). *تجارب الأمم*، تحقيق أبو القاسم إمامي، دار سروش، طهران.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن على (1993). *لسان العرب*، ط3، دار صادر، بيروت.

ابن النديم، محمد بن إسحاق (د. ت). *الفهرست*. دار المعرفة، بيروت.

الهِجراني أبو محمد الطيب بن عبد الله بن أحمد بن علي (2008). *قلادة النحر*، عُني به: بو جمعة مكري وخالد زواري، دار المنهاج، جدة.

اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي (1422هـ). *البلدان*، دار الكتب العلمية، بيروت.

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (1995) معجم *البلدان*، دار صادر، بيروت.

ب) المراجع الحديثة:

البياض، عبد الهادي (2008). *الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الانسان في المغرب والاندلس (ق6–8هـ)*، دار الطليعة بيروت.

جواد، جواد (1958). *دليل خارطة بغداد المفصل في خطط بغداد*، مطبعة المجمع العلي العراقي، بغداد.

الدوري، عبد العزيز (1945). *دراسات في العصور العباسية المتأخرة*، مطبعة السريان، بغداد، 1945.

دوزي، رينهارت (1979). *تكملة تكملة المعاجم العربية*، نقله إلى العربية وعلق عليه محمَّد سَليم النعَيمي، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية،

رؤف، عماد عبد السلام (1966). *مدارس بغداد في العصر العباسي*، مطبعة دار البصري، بغداد.

السامرائي، إبراهيم (1987). *المجموع اللفيف. معجم في المواد اللغوية والتاريخية والحضارية*، دار عمار، عمان،1987.

سوسة، أحمد(1963). *فيضانات بغداد*، مطبعة الأديب البغدادية، بغداد.

الشرباصي، أحمد(1981). *المعجم الاقتصادي الإسلامي*، دار الجيل، بيروت.

العاني، حسن (1981). *سياسة المنصور أبي جعفر الداخلية والخارجية*، دار الرشيد، بغداد.

عليش، محمد (1301هـ). *فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك*، ط1، مطبعة بولاق، مصر.

العلي، صالح احمد (1985). *بغداد مدينة السلام (الجانب الغربي*، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد.

كحالة، عمر، معجم *المؤلفين*(د ت). مكتبة المثنى – بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت.

ليسترنج، غي (1936). *بغداد في عهد الخلافة العباسية*، ترجمة بشير فرنسيس، ط1، المطبعة العربية، بغداد.

مختار، أحمد وآخرين (2000). *معاجم اللغة العربية المعاصرة*، علم الكتب، بيروت.

مزدور، سمية (2009). *المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (588-972هـ1192-1520م)* رسالة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة- الجزائر.

مقدسي، جورج (1984). *خطط بغداد في القرن الخامس الهجري*، ترجمة صالح أحمد العلي، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد.

هنتس، فالتر (1970). *المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري*، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان.

وزارة النقل العراقية (2020)." تقرير عن الزلال" (https://www.alsumaria.tv/news).

References:

a) Primary Sources:

Abu Al-Fida, Ismail bin Ali bin Mahmoud bin Muhammad bin Omar bin Shahenshah bin Ayyub (Dr. T). *lmukhtasar fi 'akhbar albashar*, Al-Husayniyyah Al-Masria Press, Cairo.

Al-Dhahabi, Muhammad bin Ahmed bin Othman Al-Dhahabi (2003). *Tarikh al'iislam wawafayat almashahir wal'aealami*, investigation by Bashar Awwad, Dar Al-Gharb Al-Islami, Beirut.

Al-Humairi, Nashwan bin Saeed Al-Yamani (1990). *Shams aleulum wadawa' kalam alearab min alklumu*, investigated by Hussein bin Abdullah Al-Omari and others, Dar Al-Fikr Al-Moasr - Beirut, Dar Al-Fikr - Damascus).

Al-Khatib, Abu Bakr Ahmed bin Ali bin Thabit bin Ahmed bin Mahdi Al-Khatib Al-Baghdadi (2002). *Tarikh baghdad, investigation by Bashar Awwad Maarouf*, 1st Edition, Dar Al-Gharb Al-Islami, Beirut.

Al-Antaky, Yahya bin Said bin Yahya (1990). *Tarikh al'antakyi is known to be bisilat tarikh 'uwtikha'a*, was investigated and made its indexes: Omar Abd al-Salam Tadmuri, Gross Press, Tripoli - Lebanon, 1990 AD.

Al-Samani, Abd al-Karim bin Muhammad bin Mansour al-Marwazi (1962). *Al'ansab*, investigation by Abd al-Rahman al-Muallami al-Yamani and others, the Council of the Ottoman Encyclopedia, Hyderabad.

Al-Suyuti, Abd al-Rahman bin Abi Bakr, Jalal al-Din (2004). *Tarikh alkhulafa'i*, 1st edition, investigated by Hamdi Al-Demerdash, Nizar Mustafa Al-Baz Library, Cairo.

Al-Zubaidi, Muhammad Murtada Al-Husseini (1965-2001 AD). *Taj alearus min jawahir alqamus*, Publications of the Ministry of Guidance and News in Kuwait - The National Council for Culture, Arts and Letters, Kuwait.

Al-Yaqoubi, Ahmed bin Ishaq bin Jaafar bin Wahb bin Wadh Al-Yaqoubi (1422 AH). *Albildan*, Scientific Books House, Beirut.

Ibn al-Abri, Abu al-Faraj Gregoros al-Malaty (1991). *Tarikh alzaman, Translated into Arabic by Ishaq Amila*, Dar Al-Shorouk, Beirut.

Ibn al-Athir, Izz al-Din Abu al-Hasan Ali bin Muhammad (2010). *Alkamil fi altaarikhi*, investigated by Omar Abdul Salam Tadmury, Dar al-Kitab, Beirut.

Ibn al-Jawzi, Abu al-Faraj Abd al-Rahman bin Ali (1992). *Almuntazim fi tarikh almuluk wal'ummi*, investigation by Abdul Qadir Atta, Dar Al-Kutub Al-Alami, Beirut.

Ibn Khaldun, Abd al-Rahman bin Muhammad (1988). *Tarikh abn khaldun*, investigation by Khalil Shehadeh, Dar Al-Fikr, Beirut.

Ibn Manzoor, Muhammad bin Makram bin Ali (1993). *Lisan Al-Arab*, 3rd Edition, Dar Sader, Beirut.

Ibn al-Nadim, Muhammad ibn Ishaq (Dr. T). *Alfahrist*, House knowledge, Beirut.

Salmon Al-Kinani, bin Ali bin Abdullah (1301 AH). *Aleiqd almunazam lilhukam fima yajri bayn 'aydihim min aleuqud wal'ahkami*, 11th edition, Al-Amiri Press, Egypt.

Sibt Ibn al-Jawzi, Abu al-Muzaffar Yusuf bin Qazooghli (2013). *Murat alzaman fi tarikh al'aeyani*, investigation and commentary by Muhammad Barakat and others, Dar Al-Resala International, Damascus.

Miskawayh, Abu Ali Ahmed bin Muhammad bin Yaqoub (2000). *Tajarib al'ummi* investigation by Abu Al-Qasim Emami, Dar Soroush, Tehran.

Yaqut Al-Hamwi, Shihab Al-Din Abu Abdullah (1995). *Muejam albildan*, Dar Sader, Beirut.

b) Recent References

Al-Bayadh, Abdel-Hadi (2008). *Natural disasters and their impact on human behavior and mentalities in Morocco and Andalusia (s.6-8 AH),* Dar Al-Tali`ah, Beirut.

Al-Douri, Abdul Aziz (1945). *Studies in the Late Abbasid Periods,* Al-Suryan Press, Baghdad, 1945.

Alish, Muhammad (1301 AH). *Fath al-Ali al-Malik in the fatwa on the doctrine of Imam Malik,* 1st edition, Bulaq Press, Egypt.

Al-Samarrai, Ibrahim (1987). *gyrus total. A dictionary of linguistic, historical and cultural materials,* Dar Ammar, Amman.

Al-Sharbasy, Ahmed (1981). *Islamic Economic Dictionary*, Dar Al-Jeel, Beirut.

Al-Ani, Hassan (1981). *Al-Mansur Abi Jaafar's internal and external policy*, Dar Al-Rashid, Baghdad.

Dozy, Reinhart (1979). *Complementary to the Arabic Dictionaries*, translating it into Arabic and commenting on it, Muhammad Salim Al-Nuaimi, Ministry of Culture and Information, Republic of Iraq,

Hunts, Walter (1970). *Islamic measures and weights and their equivalent in the metric system*, translated by Kamel Al-Asali, University of Jordan Publications, Amman.

Jawad, Mustafa (1958). *A detailed guide to the Baghdad map in Baghdad Plans*, Al-Ali Al-Iraqi Press, Baghdad.

Rauf, Emad Abdel Salam (1966). *Baghdad Schools in the Abbasid Era*, Dar Al-Basri Press, Baghdad.

Sousse, Ahmed (1963). *Baghdad Floods*, Al-Adeeb Al-Baghdadiya Press, Baghdad.

Al-Ali, Salih Ahmed (1985). B*aghdad, City of Peace (West side*, Iraqi Scientific Academy Press, Baghdad.

Kahaleh, Omar (D.T). *Authors' Dictionary Al-Muthanna Library* - Beirut, Arab Heritage Revival House, Beirut.

Lestering, Guy (1936). *Baghdad in the era of the Abbasid Caliphate*, translated by Bashir Francis, 1st Edition, Al-Mubtaba Al-Arabiya, Baghdad.

Mukhtar, Ahmed et al. (2000). *Dictionaries of Contemporary Arabic Language*, Book Science, Beirut.

Makdisi, George (1984). *Baghdad plans in the fifth century AH*, translated by Salih Ahmed Al-Ali, Iraqi Scientific Academy Press, Baghdad.

Mazdour, Soumaya (2009). *Famines and Epidemics in the Central Maghreb (588-972 AH / 1192-1520 AD)*, Master Thesis, Mentouri University, Constantine - Algeria.

The Iraqi Ministry of Transport (2020). "*A report on albumin*" (https://www.alsumaria.tv/news).